يوسف الأشقر

# حربُ التَحرير القوميَّة

## أبعادُها – طبِيعتُها – خصوصِيتُها



منشورات الطليعـة




# حربُ التّحرير القوميّة

## أبعادُها – طبيعتُها – خصوصيتُها

يوسف الأشقر
1982

موضوع هذا الحديث القصير هو عن خصوصية حرب تحريرنا القومية . وقد اعتمدنا التسلسل التالي :

١ ـ خصوصية الحرب علينا
٢ ـ خصوصية المرحلة الحربية الراهنة
٣ ـ خصوصية عامـل الزمـن
٤ ـ خصوصية طبيعة الرد أو الملمح الاساسي لفلسفة حرب تحريرنا القومية .
٥ ـ ترجمة الرد في ضوء أوضاعنا القائمة .
٦ ـ وأخيرا : الخلاصة والاستنتاج حـول التمييز بـين الحالة والاتجـاه .

2

## ١ ــ خصوصية الحرب علينا :

### أ ــ هل هي مؤامرة ؟

في رأينا أن ما يجري في بلادنا وفي العالم بصدد بلادنا هــو أعلى مستويات الحرب . ان كلمة مؤامرة لا تفي بالغرض ، الا اذا شئنا ، استبدادا ، أن نحمّل كلمة مؤامرة فوق ما تعني او اذا شئنا ان نعني اقل مما هو حاصل .

بل ان اختصار حربنا بكلمة « مؤامرة » مع ما بني على ذلك مــن استنتاجات واجتهادات ، أساء بشكل بالغ ، الى عامل الوعي في شعبنا ، اذ كان له دور تضليلي في ترسيخ الاعتقاد بتعددية الاطراف المتآمــرة الى ما لا نهاية ، وتحويل الانظار عن مصدر الحرب الاساسي الواحد . قد يجوز اطلاق كلمة مؤامرة بالمعنى التاريخي والحضاري العام ، وهذا شيء آخر كليــا .

### ب ــ هل هي حرب تقليدية ؟

نميز بين نوعين من الحروب التقليدية :

ــ الحروب التقليدية في التاريــخ مواصفاتهــا معروفــة بالرغم من خصوصيات بعضها .

ــ ثم الحرب الامبريالية المعاصرة .

الحرب الامبريالية المعاصرة تختلف عن الاولى بطبيعتها وحجمهــا وعمق اجتياحاتها وسرعتها . ولكن بالرغم من هــذا الفارق النوعي اعتبرناها ، بالنســبة الينا ، تقليدية بمعنى انها لا تتميز عندنا بفــارق نوعي عنها في العالم . واذا كانت الحرب الامبريالية قد تميزت عندنــا بالخدمات المتميزة التي قدمتها وتقدمها لاسرائيل ، مصدر خصوصية الحرب علينا ، فذلك لا يدخلها في جوهر هذه الخصوصية في رأينا .



نخلص الى القول ان الحرب علينا هي ، في جانب منها ، تقليدية ، وهي في جانبها الاهم ، خصوصية فريدة .

## ج ـ الحرب الفريدة

الجانب الفريد في حربنا ، الجانب الأهم والاخطر ، هو حرب اليهود علينا . لم يشهد تاريخ الانسانية ، قديمه وحديثه ، حربا اشد وضوحا وبساطة ومباشرة في طبيعتها وأهدافها ، واشد غموضا وتعقيدا وتنوعا والتواء في صيغها وأساليبها ووسائلها .

تستهدفنا ليس فقط في وجودنا الافقي كجيل معاصر قائم من اجيال مجتمعنا ، بل كمجتمع في كليته ، في سياق أجياله وتاريخية وجوده . فمجتمعنا ، عموديا ، يجب أن يغيّب ومعه ستة آلاف سنة من وجوده في قلب التاريخ وكمصدر لأهم النقلات الثقافية النوعية ولاول عهد حضاري ، وكمصدر ومعين متواصل ومتجدد لاهم تراث مناقبي انساني من سرجون وحمورابي وزينون الى المسيح ومحمد . ولهذا الغرض تشكل اسرائيل واليهود في العالم فرق حرب تطارد ستة آلاف سنة من تراثنا وتقاليدنا وكل مسيرتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية .

ومجتمعنا ، افقيا ، يجب ان يتفكك وينهار ويتبدد ، فيفقد هويته ومؤسساته وايمانه بنفسه كشعب ، فتخرب مرافق حياته وتبدأ ارض بلاده ، على سعتها ، تضيق بالانسان وأسباب عيشه ، ليجد نفسه اخيرا امام خيارين : اما أن يتنازل عن حقوقه المدنية والسياسية ويرضى بالعيش ضمن الحجم والعدد والمستوى والحدود المسموح بها ، واما ان يهاجر لغير رجعة . ولهذا الغرض تشن اسرائيل حربها الاجتثاثية التدميرية على كل خريطة حياتنا القائمة على أرض وطننا وفي العالم .

هل من ضرورة لتقديم شواهد على ذلك لنسترجع بالتفصيل الحروب التي يشنها المؤرخون اليهود على كل حفرية أثرية تقوم عندنا وعلى كل




لوحة ومخطوطة واثر ، من نينوى وماري وبابل الى راس شمرا وايبلا ، الى البحر الميت وجبيل وصور ؟ أو لنسترجع كامل قصة آثارنا منذ مطلع هذا القرن ، على الاقل ، وما أصاب هذه الكنوز من نهب وتدمير ، أو من تحريف واتزوير ، أو من استنطاق تشويهي ، والذي يراقب الحملات اليهودية على اكتشافات ايبلا ومضمون هذه الحملات يعرف ابعاد الحرب الاسرائيلية وشراستها ويتأكد من حقيقة ما نعني بقولنا انهم يطاردون ستة آلاف سنة من حياة مجتمعنا بنفس الشراسة ولنفس الفرض التدميري الاجتثاثي في أجتياحهم خريطة حياتنا المعاصرة .

في هذا البعد الاجتثاثي التدميري لمجتمعنا ، عموديا وافقيا ، ترتسم ملامح خصوصية الحرب علينا ، في طبيعتها وفي اهدافها .

## ٢ ـ في خصوصية المرحلة الحربية الراهنة :

اذا كان تقويض مجتمعنا هو غرض الحرب الاسرائيلية بشكل عام ، فالمرحلة الحربية الراهنة تكشف بامتياز عن هذا الفرض . ألم تقرر اسرائيل ، بعد حرب حزيران أولا ، ثم بعد حرب تشرين تأكيدا ، ان تتعامل ، حصرا ، مع بنية مجتمعنا ، تعاملا حربيا مباشرا ، دون المرور ، الا مداورة ومجانبة ، بالتعامل الحربي مع الانظمة والجيوش وسائر القوى المسلحة ؟

التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا : هذا هو العنوان الكبير للمرحلة الحربية الراهنة . واذا اخذنا مسلسل هذه المرحلة ، وجدنا أن اسرائيل تمكنت مثلا من ايصالنا الى هذه الحالة في لبنان بفضل تمكنها من التعامل الحربي المباشر مع ثغراتنا الاجتماعية والثقافية واوضاعنا الداخلية العامة اكثر مما كان بفضل تدخل المدافع والاساطيل ، الجوية والبحرية . وفي راينا انها ستستمر على خطتها هذه : مناوشة الجيوش والانظمة والمنظمات سياسيا وعسكريا ، كتحرك تكتيكي ،




والاستمرار في ضرب العمق الاجتماعي ، المادي والمعنوي ، السياسي ـ الاقتصادي والثقافي ـ النفسي ، كغرض استراتيجي حتى لو قررت اسرائيل ، قريبا ، حربا مباشرة ، فان اهدافها الاساسية ، في رأينا ، هي ، بالاضافة الى احتلال الارض ، حسم اوضاع في قلب مجتمعنا لمصلحتها ، سواء أوضاع خاصة بكيان أو اكثر ، أو أوضاع تتناول علاقات بعض الكيانات ببعضها الآخر . فيكون هدف حسم الأوضاع المتعلقة بالمجتمع وبنيته وانماط علاقاته متقدما في الاهمية . اكثر من ذلك : حتى المناطق الستراتيجية في عمق وطننا ، تعتمد اسرائيل خطة دخولها اليها وتحكمها بها من خلال تفجير وضعها الداخلي . مثال على ذلك : الشريط الساحلي من الناقورة الى لواء الاسكندرون هو مفصل استراتيجي حيوي في حياة سورية ، وهو رئتها وبوابتها . وقد كان احتلاله ، تاريخيا ، هدف الفاتحين والدول الطامعة في اضعاف سورية . ولا شك ان هذا الشريط تركز عليه اسرائيل في مرحلتها الحربية الراهنة ، ولكن ليس بالهجوم المباشر عليه بل بالسيطرة عليه من داخله أو بتفجيره وتفجير الاوضاع العامة به ، كنهج استراتيجي .

بذلك نفهم حرص اسرائيل على التمسك بوضع الجيب الساحلي الممتد من بيروت الى شكا .

وبذلك نفهم لماذا لا ترتاح ، بشكل خاص ، المدن الساحلية اللبنانية : صور ، صيدا ، بيروت ، طرابلس .

وبذلك نتوقع اتجاه التفجير الداخلي نحو الساحل الشمالي في طرطوس وبانياس واللاذقية . بل اكثر واكثر . اننا نعتقدان خطة اسرائيل تقوم على « خطوط حمر» اجتماعية وسياسية وأمنية واقتصادية وثقافية متقدمة على الخطوط الحمر العسكرية . انها تمثل نسبة عالية من المجهود الحربي الاسرائيلي ، كما تقف وراء نسبة عالية مما يجري في أوساطنا . ولا شك ان هذه النقطة بالذات تحتاج الى دراسات مستقلة نظرا لاهميتها الحالية ولموقعها المميز في مفهوم السلم الاسرائيلي .



واذا كانت هذه الخطوط الحمر خفية ومضمرة ، فسيرتفع صوتها عاليا عند أول مناسبة في لائحة شروط اسرائيل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية والثقافية والدينية ، فضلا عن الامنية والعسكرية . واذا كانت الان شروطها تتعلق بالصواريخ ومواقعها والطائرات وطلعاتها ، والجيوش وتنقلاتها ، فستكون شروطها غدا متعلقة بعدد الجامعات ونوع الكليات ومستويات العلوم المسموح بها في مفهوم امنها القومي . وهذا النوع من الشروط سينسحب على اكثر الامور والقطاعات الاخرى في حياتنا : على التربية والتعليم والصحافة والاذاعة والتلفزيون وقوانين الاحزاب والانتخابات والمشاريع الانمائية ومواقع الصناعات وحجمها ومستواها ..

ولن تعدم اسرائيل وسيلة لايجاد الصيغ والاسماء لتغطية هذا التحكم بحياتنا . ففي مصر مثلا ، وبحجة تطبيع العلاقات وتعزيز الثقة وروحية السلم ، اصبح لاسرائيل قبضة على حياة مصر الداخلية وقراراتها الداخلية والخارجية . ولعل هذا مابدا المصريون ، حكما وشعبا، يشعرون بوطأته وخطره. في هذا البعد الستراتيجي الذي يتلخص بالتعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا ، ترتسم خصوصية المرحلة الحربية الراهنة .

### ٣ ـ خصوصية عامل الزمن عندنا :

في خلفية الكثير من فكرنا وعملنا القوميين مراهنة على عامل الزمن .

الموقف النظري في هذه المراهنة يتلخص بما يلي : الشعوب انتصرت في الصراع الاخير على الاستعمار والامبريالية مهما تفوقت قوى الامبريالية المادية . والامثلة على ذلك لا حصر لها . ولم يشذ عن هذه القاعدة احد .

ومن جهة ثانية هناك مبدأ حتمية التقدم ، فلا يعقل ان نسير الى الوراء . فالمسألة مسألة وقت . والزمن الى جانبنا . هذا ما يلخص الخلفية النظرية للمراهنة على عامل الزمن .




**اولا :** في راينا ان هذه الخلفية النظرية لا تنطبق على حالتنا بأي شكل

**ثانيا :** الاعتماد عليها ، في موضوعنا ، قائم على الجهل الكامل .

**ثالثا :** سمحت هذه الخلفية بأن ينضوي تحتها ويقبع اكثر من نقيصه واكثر من رذيلة ، منها الكسل الذهني المتفشي الذي يجد في المراهنة على عامل الزمن خلاصا من عناء الفكر وقلق النفس ، ومنها الانحلال الصراعي الذي يجدفيها منفذا لتبرير التهرب من العمل والصراع، ومنها الانحلال الاخلاقي الذي يجد فيها بابا للتحلل من المسؤولية .

**رابعا :** الاعتماد على هذه الخلفية في موضوعنا القومي والسياسي والاجتماعي ، ادى ، منذ العشرينات ، الى كوارث عندنا . واذا نظرنا الآن الى نصف القرن الاخير من حياتنا نظرة متفحصة واقعية ، وقمنا بعملية مراجعة في العمق لرسم خط بياني دقيق لأوضاعنا ، تبين لنا اننا في خط انحداري متسارع . ففي راينا ان فرص العمل الانشائي في حياتنا المفرغة وفرص العمل الصراعي فيحياتنا المهددة وفرص العمل التغييري في حياتنا المجمدة وحتى فرص العمل الاصلاحي البسيط في حياتنا المخربة ، هي على تناقض وتراجع سنة بعد سنة وعقدا بعد عقد . ففي الاربعينات والخمسينات اصبحت مهمتنا الانشائية والصراعية والتغييرية والاصلاحية أصعب منها في العشرينات والثلاثينات .

وكذلك في الستينات والسبعينات اصبحت اصعب منها في العقدين السابقين . بل اكثر من ذلك . ان سرعة الانحدار تتزايد عقدا بعد عقد ، خاصة في السنوات العشر الاخيرة التي يمكن اعتبار تراجعاتنا فيها موازية لتراجعات نصف القرن بكامله .

وفي رايي أن الاصوات التفاؤلية المرتفعة، معددة انتصاراتنا ، مسجلة انجازاتنا ، مطمئنة الى مصيرنا مؤكدة حتمية انتصارنا الاخير ، هكذا في المطلق ، انما هي تفاؤلية مريضة اما في فكرها واما في اخلاقها . ان خصوصية عامل الزمن عندنا في ضوء طبيعة الحرب علينا وتطورات هذه الحرب ، هي اقوى خصوصية .



## ٤ ـ الرد الفريد : او فلسفة حرب تحريرنا القومية :

لقد توقفنا طويلا ، نسبيا ، عند طبيعة هذه الحرب واهدافها ، وعند المرحلة الحربية الراهنة واهم ملامحها ، لنصل الى تعيين نوع ردنا نحن على هذه الحرب اي نوع حربنا التحريرية، طبيعتها ، مقوماتهاومواصفاتها الاساسية .

في مواجهة الحروب التقليدية لكل حرب تحرير خصوصية اساسية فكيف في حربنا ، ونحن نواجه الخصوصية الحربية بالذات فضلا عن مواجهتنا الحروب التقليدية الاخرى . فاذا توقفنا طويلا ، نسبيا ، عند طبيعة الحرب علينا وتطوراتها حتى مرحلتها الراهنة ومدى نجاحاتها فلاننا نعتقد ان هذا هو الطريق الصحيح للوصول الى تعيين مبدئيات حرب تحريرنا القومية . غير هذا الطريق يوصلنا الى لائحة عقاقير ، مجرد لائحة عقاقير ، وما اطولها لائحة واكثرها عقاقير ، الا انها كلها لا تصنع دواء . لنعد الى ما التزمنا به في مطلع هذا الجديث ، اي محاولة رد المعادلات الى أبسط صيغها .

راينا ان غرض الحرب الاسرائيلية هو تقويض مجتمعنا في اشمل عملية اجتثاثية ، وان فلسفة الحرب الاسرائيلية هي التعامل الحربي المباشر مع مجتمعنا ، فهي ، عموديا ، تطارد ستة آلاف سنة من بعد مجتمعنا التاريخي ، وهي ، افقيا ، تطارد اجيالنا الحاضرة في بنيتها وحياتها على ارض وطنها وحيث انتشرت في العالم . فموضوع الحرب هو المجتمع . ومسرح الحرب هو في قلب المجتمع . والمجتمع هو طرف الحرب ، الاساسي الوحيد .

وفلسفة حرب تحريرنا القومية تتلخص بمجتمع يخوض الحرب على حرية وعلى معرفة وعلى ارادة ، وعلى قدرة . هذه مواصفات المجتمع الحربي . وهذا يمر ، في ضوء طبيعة حربنا ، بمجتمع النهضة ، الجديد .



لن نسترسل في مواصفات مجتمعنا الحربي ومجتمع النهضة الجديد . ولكن لابد من التذكير اننا لا نعني بالمجتمع الحربي ، مجتمع الخوذات الحديدية والبنادق والمدافع والطائرات ، التي تبقى ، رغم أهميتها ، مجرد جانب من جوانب عدتنا الحربية . ان عدتنا الاساسية هي الانسان ، وعدة انساننا الاساسية هي ان نكون مجتمعا واحدا ، متماسكا ، حرا ، عارفا ومريدا وقادرا . هذا ينسجم مع تعريف النهضة بانها الخروج من التفسخ والتضارب والشك الى الوضوح والجلاء والثقة واليقين والايمان والعمل بارادة واضحة وعزيمة صادقة . ( المحاضرة الاولى من المحاضرات العشر ــ سعاده ) .

موضوع الحرب هو المجتمع . مسرح الحرب هو في قلب المجتمع . والمجتمع هو طرف الحرب الاساسي الوحيد .

لاول مرة في تاريخ الانسانية يكون مجتمع ما معنيا ، بكليته ، بحرب مصيرية على هذه الشمولية ، تتناوله في بعده التاريخي كما في حاضر أجياله ومستقبلها ، وتتناوله في كل عام وفي كل خاص وفي كل تفصيلي .

ولاول مرة في تاريخ الانسانية يكون على مجتمع ان يرد « بكليته ، بعامه وخاصه وتفاصيل بنيته ، ليخوض حربه الشاملة ، على جميع الجبهات ، وفي وقت واحد ، وبجميع قطاعاته ومرافقه ومؤسساته وأفراده ، دون ان يكون امامه الا فسحة زمنية قصيرة جدا ، نسبيا ، وهي فسحة زمنية متاحة للتعويض عن فسحات حربية سابقة كانت فيها الحرب مخاضة من جانب واحد ، جانب العدو وحده .

هذه ، بأبسط الصيغ ، معادلة فلسفة حربنا القومية الراهنة . هذا يعني ان المجتمع ، ولا احد غير المجتمع ، هو طرف الحرب الاساسي . هذا يعني ، تحديدا ، ان لا احد يستطيع ان يخوض هذه الحرب ، على نجاح ، اذا اعتبر نفسه بديلا عن المجتمع . لا الانظمة ولا الجيوش ولا الاحزاب ولا المنظمات تستطيع ان تدعي انها البديلة وان تترك المجتمع على هذه الحالة .



وهذا يعني ان حربنا يجب ان نخوضها حيث هي بالفعل ، لا حيث نشتهي ، نفسيا ، ان تكون ، او حيث نجتهد ، ذهنيا واستبداديا انها هناك . .

## ه ـ ترجمة الرد في ضوء أوضاعنا القائمة :

هنا نصل الى المفصل الاساسي ، الى تحديد العمل وتحديد المسؤوليات وتعيين المسؤولين ، وهذا من ضمن سلم اولويات عامة .

قد يقول قائل : ولكن جعل المجتمع ، كامل المجتمع ، الشعب ، كل الشعب ، هو الموضوع وهو المسرح وهو الطرف الاساسي الصالح ، يسيب القضية ويرمي بالكرة في ملعب الشعب ويعفي الانظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب من مسؤولياتها .

الحقيقة ان هذا استنتاج متسرع ، وعكس ذلك تماما هو ما نتوصل اليه الان . اننا نريد ان نؤكد مسؤوليات الانظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب ، وان نؤكد ضرورة استمرار وتصعيد عملها القائم ، ولكننا من جهة ثانية نؤكد ان عليها ان تدرك ان مهمتها الاساسية ان تؤهل الشعب وتمنحه فرصة الاتجاه الصحيح ، وذلك من ضمن نضالها نفسه . فالمهمتان متلازمتان على ان تكون مهمة تأهيل الشعب هي الفرض الاخير . فاذا كانت كل بناها ، في جيوشها وميليشياتها وتنظيماتها ليست البديل عن الشعب الذي هو الموضوع والمسرح والطرف ، عند ذلك ترتسم الحدود الفاصلة بين مسؤولياتها في تأهيل الشعب عبر نضالها نفسه ، وبين تعديها صلاحياتها في اعتبار نفسها البديل عن الشعب ، وهذا يؤدي ، نظريا وعمليا ، الى حرمان الشعب هذا الحق ، اي الى الاعتداء على الشعب .

كما ترتسم الحدود الفاصلة بين الانظمة والاحزاب والمنظمات المنبثقة من صميم الشعب المسؤولة تجاهه المؤمنة به كل الايمان والمراهنة عليه



في حسابها الاخير ، وبين الذين تأمنت لهم السلطة وتأمن لهم السلاح والمال ، دون ان يكون لقضية المجتمع علاقة بظهورهم ، فاعتبروا انفسهم بديلا .

وهنا نريد ان ننتقل من المبدا والتعميم ، الى التطبيق والتخصيص . ما هي شروط هذا المنطق ، العملية ؟ بل ما هي الشروط الواجب توفرها للشعب ليسترجع اتجاهه ، ليسترجع هذا الحق ؟

في راينا ان الشروط الواجب توفرها ليست شروطا متواضعة لذلك يحسن بنا ان نصنفها الى شروط ضرورية وشروط كافية ، ثم نكتفي من الشروط الضرورية بأولياتها واساسياتها ، حتى لا نخرج على حدود الممكن والمعقول في أدنى حدوده ، وفي ضوء تعاملنا الواقعي مع الاطراف المعنية .

علما ان هذه الشروط الضرورية في أولياتها ليس من شأنها ان تنقل المجتمع من حالة الى حالة ، ثم ان تنتظر حصول هذه الحالة للانتقال الى حرب التحرير . بل الغاية وضع المجتمع في اتجاهه الصحيح ، من ضمن عملية الصراع التحريري نفسه .

**بالنسبة الى الانظمة والحكومات**

ثلاثة تحديات تتعلق بأساسيات حياة مجتمعنا واجهت كل حكم في كل من كياناتنا منذ اكثر من نصف قرن . وفي التحديات الثلاثة سقط كل حكم في الامتحان . التحدي الاول موضوع العلمنة ، موضوع الدين والدولة ، موضوع حماية الدين من سوق التجارة السياسية وغير السياسية ، وموضوع حماية المجتمع والدولة والوطن من تجار الدين والسياسة ومن اختلاطات الاجتهادات الدينية ــ السياسية . موضوع تاسيس المواطنة على العلاقة بالارض وعلى العلاقة الممتدة في المجتمع بلا حدود ولا تمييز بكل عضو في المجتمع وبكل قطاع وبكل مؤسسة




وبكل فرصة من فرص الواجب والمسؤولية والحق والحرية . انـه ، في الاخير ، المدخل الصحي الى موضوع الانتماء وموضوع الهوية .

بكل اسف سقطت الانظمة في هذا الامتحان ، حتى لا نقول اكثر .

التحدي الثاني هو موضوع الوحدة القومية أو دورة الحياة القومية او الحدود الاولية من دورة الحياة بين الكيانات القائمة ، التي تجدد عهد الدولة ـ المدينة بكل ضيق افقها وبكل انانياتها وبكل عجزها الذي اوصلها في النهاية الى حتفها . مع فارق بسيط هو ان الدول ـ المدن الكنعانية لم تسجل على نفسها ، طوال تاريخها ، انها خاضت حربا واحدة فيما بينها .

وحدها دورة الحياة تؤمن للمواطن وحدة النظر ووحدة الشعور ووحدة الثقافة وممارسة وحدة الحياة ووحدة المصير .

على دورة الحياة القومية وحدها يبنى اقتصاد سليم ودفاع سليم وتمثيل قومي سليم ، في مواجهة العالم الخارجي .

هذا في بعض الايجابيات . أما السلبيات الحاصلة فلائحتها طويلة يضيق المجال هنـا بذكرها . ولكننا نشـدد على ظاهرتـين خطرتين متزايدتين : الاولى تتعلق بالمواطن مباشرة ، وهي الحروب الصغيرة بين الانظمة ، التي تنعكس ، عمليا ، عقوبات ينزلها رجال كل حكم ليس فقط برجال الحكم الآخر بل بالنظام الآخر ، بل بالكيان الآخر ، بـل بكل مواطن من مواطني الكيان الآخر . وهكذا يصبح كل مواطن في كل من كياناتنا خاضعا ، بشكل مباشر او مداور ، لعقوبات تنزلها بـه انظمة كل من الكيانات الاخرى .

والظاهرة الثانية تتعلق بالمواطن ايضا ولكن عبر موضوع الحرب والسلم . وهنا أكتفي بالقول ان اكثر أنظمتنا لم يقتنع بعد بأن العدو يستهدفنا جميعا في الاخير وانه لامجال لمرور السلم الاسرائيلي والحرب



الاسرائيلية الا على جثثنا جميعا . فلا مجال لتخليص رأس على حساب رأس آخر ، ولا مجال لتقديم فدية للتنين لتخليص المدينة ، حتى لو كانت الفدية مدينة اخرى .

وهنا ايضا نكتفي من الوحدة القومية بالاتجاه على الاقل ، باقل الاجراءات التي تضع مرافق الحياة في الكيانات في اتجاه واحد وتسمح لحركة الحياة الطبيعية ان تاخذ دورها الطبيعي دون تدخلات سلبية . واذا كان لابد من خلافات بين الانظمة ، وقد يكون بعضها مبررا ، فلتنزل العقوبة بالنظام لا بالكيان ولا بالمواطن .

التحدي الثالث هو موضوع الحريات . لنذكر اننا في صدد موضوع حرب التحرير القومية . والتحرير القومي يمر" حكما بالمجتمع الحر" ، بالمواطن الحر" .

والحرية ، الى جانب كونها ظروفا موضوعية وظروفا مادية ، هي وضع اخلاقي ونفسي ، وضع ذاتي ، تحياها الذات الانسانية كما تنشق الهواء وكما الغذاء والدفء والحركة الطبيعية للأجسام الحية . فالمجتمع لا يخوض حربه الا بالحرية . والحرية ليست مجرد شكل لرفع العتب.

اتكلم عن الايمان بالحرية بمفهومها العميق المؤسس على معرفة ان الانسان لا يعمل ، لا ينتج ، لا يفكر ، لا يحارب حربه الكبرى ، لا يخلق ، الا اذا كانت الحرية عميقة في وجدانه ومتحولة الى طمأنينة صحية في طيات نفسه ، طمأنينة الى قيمته وكرامته وجدوى تضحياته وفاعليتها في قلب مجتمعه اولا .

بل اكثر من ذلك . الانسان لا تنمو تطلعاته واحاسيسه الصحية ، فيامل ويتالم ويفرح ويحزن ويشجع ويخاف خوفه الكبير وقلقه الكبير على مجتمعه الا اذا كانت الحرية دخلت في نسيج كيانه واصبحت تلفه وتلف فضاء كيانه ، مؤمنة حوله كما الماء والاوكسجين وكما علاقته




العضوية بالطبيعة التي يلمسها ويشمها ويسمعها ويبصرها ويتذوقها ويتنشقها ويعقلها .

واذا كان هذا صحيحا بالنسبة الى الشعوب عامة ، فهو ينطبق بشكل خاص على شعبنا ، الاصيل في ممارسة الحرية .وصاحب الرسالات الانسانية القائمة على القيم والروح الانسانية .

ومتى تذكرنا ان هذه الحرب ، كل هذه الحرب تقوم على حيوية المجتمع ، المباشرة ، ومبادرة المجتمع ، بامتياز ، ندرك كيف أن عامل الحرية حاسم في حرب تحريرنا .

لكن الحرية جوهر وليست شكلا محددا . اشكال الحرية الغربية هي انماط حياتية توصل اليها الغرب عبر تجربته الخاصة ووفقا لحاجاته ومستوااها . ومع ذلك فاننا نشهد في الغرب أزمة بين الحرية وأشكالها . اننا ندعو الى اعادة نظر باكثر الصيحات المراهنة على اشكال وانماط للحرية أصبحت ، في منشأها نفسه ، موضوع أعادة نظر .

وفي الاخير ، لابد لنا من أن نتذكر ان خطة العدو تقوم على التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا . هذا يعني انه يحاول ان يمرر اعماله الحربية في قلب مجتمعنا تحت شعار حرية الحركة والعمل لجيوبه وادواته .

وهذا يعني ان قسما من جهودنا الحربية يجب أن تتحول الى ضرب البؤر المطالبة بحرية تهديم المجتمع وتمزيقه .

لا يفصل في هذه الامور ، في ماهو حرية المجتمع ، الاساسية ، وفي ما هو حرية العدو بتمزيق المجتمع من الداخل ، الا العقلية الاخلاقية المسؤولة عن تأمين شروط انتصارنا في حربنا التحريرية عبر تأهيل المجتمع ، من جهة ، وعبر حمايته في داخله ، من جهة ثانية .

## بالنسبة الى المنظمات والاحزاب

ان قسما كبيرا مما قلناه في شأن الانظمة والحكومات ينطبق على المنظمات والاحزاب . عليها دائما ان تذكر نفسها بأمرين :

الامر الاول انها ليست البديل عن الشعب الذي هو موضوع عملها ومسرح عملها ، مصدرها ومآلها . فاذا كانت حقا نموذجا ومصبا للعمل الشعبي المنظم فلتكن في عملها يدا تقاتل العدو حيث تجده ، ويدا تؤهل الشعب وتتعلم منه . هي هذه اصول لعبة القيادة في الشعب الاصيل الحي : القيادات تعطي الاتجاه والنموذج التنظيمي ، والشعب يشق الطريق ويقوم بالمسيرة ويصل هو الى هدفه .

اذا التزمت المنظمات والاحزاب بهذا المبدا ، بهذا الدور ، بهذه الوظيفة في كل عمل وتصرف واجراء ، عندئذ يتغير الكثير من خطط الاحزاب والمنظمات ويزول الكثير من متاعبها الحالية ومتاعب الشعب بها .

والامر الثاني الذي يجب أن تذكر نفسها به هو أدق واشمل ، وهو انها لا تستطيع ان تختصر هذه الحرب القومية التي قلنا انها حرب المجتمع بكامله ، لا تستطيع ان تختصرها بوجه من وجوهها او بقطاع واحد من قطاعاتها . فاذا كان المجتمع هو الجيش الكبير الذي علينا ان نعده ، كما مر معنا في تحديد هوية الحرب علينا وهوية حربنا التحريرية ، فلا يحق لنا اختصار هذا المجتمع ـ الجيش بحامل البندقية في شوارعنا . وحامل البندقية من اعضاء احزابنا ومنظماتنا الشعبية اذا لم يشعر انه يصدر عن جسم مركب هو المجتمع وهو مسؤول معنويا ومسلكيا في كل تصرف تجاهه ، عندئذ يتمدد حامل البندقية على حساب محيطه وعلى حساب نفسه ، يتمدد حتى الفساد ، فساده هو وفساد وظيفته الاساسية والغاية البدئية من وجوده . يصير حامل البندقية بدون بنية اجتماعية يصدر عنها وتغذيه وتحميه كما هو

يحميها . يصير حامل البندقية يحمي نفسه ويعتدي على جيشه اي على مجتمعه . ان واضعي القنابل في شوارعنا لا ينجحون بمهماتهم لان عدد مسلحي الحزب قليل في الشوارع بل لأن الشعب لم يؤهله وينظمه احد على اساس انه جيش قضية .

واخيرا ، عود على بدء .

ان خصوصية الحرب علينا وخصوصية المرحلة الراهنة وتسارعها، وخصوصية حرب تحريرنا القومية ، كلها تصب في خصوصية اساسية يجب ان نجعلها شعارا لحياتنا ، شعارا لنا ولبيوتنا وعائلاتنا ، شعارا لاجيالنا التي لم تولد بعد ، هي خصوصية صراع الموت والحياة بين اليهود ومجتمعنا .

ولنعلم ان الصهيونية ليست أشد الحركات اليهودية عدوانية .




